مذكرات خاصة

(٦) تجاربي في الحيـــــاة*

بقلم الاستاذ أسعد بك لطفي حسن

أعود بك ـ أيها القارىء الكريم ـ ونتوجه معاً إلى المدرسة الخديوية بشارع درب الجماميز ، حيث اندمجت بين طلابها ، مع وجود المسافة البعيدة بينها وبين حي باب الشعرية الذي كان يقيم فيه من نزلت بساحتهم من أهلي ؛ فكنت أروح وأغدو مشياً على الأقدام ، ولم تكن هناك وسائل للمواصلات إلا عربات الخيل، وهي لأولاد السراة والأغنياء أو بالأجر ، وأنا يتيم لا قبل لي على احتمال دفع الأجرة ، وكانت هنالك أيضاً «الحمير» ، ولم أكن متعوداً ركوبها لما تكلفني من النفقات ؛ ولهذا كانت تلك المسافة الطويلة قصيرة أمام عزيمتي ، ويخفف متاعبها عليّ فريق عظيم من زملائي في المدرسة من أبناء الحي؛ وأذكر الآن — وقد امتد الترام في ذلك الطريق — أن الشاب الذي تصح له الحركة والنشاط لا يفكر مطلقاً في قطعها بالقدم ، وأن أصغر منها من الطرق لا يتم إلا بالركوب، وبحثت طويلا فيما انتشر من الأمراض وظهر بين الشبيبة وقضى على حياة الكثيرين ، فوجدت أن ذلك التكاسل من أهم أسبابه ، وقد انقلب نشاط الأمس وحركته إلى تهاون وترف وفتور في همة الشباب وعزيمته ؛ ومن الناحية الأخلاقية أذكر أنا كنا نسير من البيت إلى المدرسة لا نفكر مطلقاً إلا في المدرسة، ولا نلتفت إلا إلى واجبها ، وليس فينا من يدخن ، أو يداعب ، أو يتصيد ، أو يغازل ، أو يضيع وقته في مفسدة ، وكان « مصروفنا » القليل الذي يناوله الواحد منا في اليوم يشجعنا على عدم تغيير خطتنا المثلى ، والاعتدال، والاستقامة ؛ أما الآن ، فاليافع المراهق من أولادنا لا يرضى بعشرات القروش يومياً ، حيث يدخن قبل كل شيء ، ويرتب أوقات فراغه قبل تدبير ساعات عمله ، ويبحث عن دور الملاهي قبل أن يصل إلى مدرسته ، فإذا ما ولج بابها وجد صديقه ينتظره للاتفاق على ما دبره هو بدوره ، وربما شغلهما التدبير عن الإصغاء إلى الدرس، ورحم الله زمن تلك العصا التي كانت في يد المدرس بالأمس، لا يتورع عن استعمالها عند الحاجة ، وقد خلت أيامها، وحلت محلها الملاينة والملاطفة ، وقد كان المعلم موضع المقاومة

---

* راجع « المرقة » ج ٩ و ١١ و ١٢ من السنة الاولى و ٥ و ٧ من السنة الثانية .

والمناقشة ؛ أذكر هذا كله ، وأفكر فى تقلب الليل والنهار ، وفى انقلاب الحال إلى ما نحن عليه ، مما يسمونه الرقى والتمدن ، فأرضى لنفسى الجمود ، وأذكر ذلك الأمس الغابر بالزفرات والحسرات ؛ وأرسل كلتى إلى الآباء ، وقد كانوا سبب ذلك التغيير ، إذ انصرفوا بدورهم عن واجباتهم ، وتركوا أولادهم بعيدين عن اهتمامهم ، وجعلوهم هدفاً للبيئات التى يوجدون فيها .

فى طريق المدرسة ، وفى سبيل التعليم ، تتمثل مآس ومفاجع ، بل هنات ومخاز بين الشباب فى نوعيه ، وتنقلب الغاية السامية إلى هوى النفس وملاذها ، وتضيع النتيجة المطلوبة ، وتصل إلى أسوأ الأدوار ؛ فالفتى الذى ينفق عليه أهله ليتعلم ، والفتاة التى يراد تجميلها بالعلم والأدب ، ينسيان ذلك ويتغازلان ، ويتبادلان النظرات والإشارات ، ويحددان الأوقات للمقابلات ، ويختاران الخلوات للنزهات ، ويعلم الله ماذا تكون العاقبة ، وهذا كله فى ظلال المدنية ، وتحت أفق الحرية الكاذبة .

وما منشأ ذلك ؟ هل هو خفى على الناس ، أو هو معلوم لهم ؟ إنى أرى — وأنا الرجل المحافظ على الطراز القديم الذى لا يساير المدنية الخلابة ، والذى أكسبته التجربة خبرة — أن المفروض على الجماهرة برأيى ، وأرى أن ذلك الرأى ينصب على السينما والتمثيل ، لأنهما سببان كبيران من تلك الأسباب ، وأن الغفلة عن مراقبة ما يمثل فيهما أدت إلى هذه الحال المحزنة ، وأن الفتى معذور إذا وجدت أسباب التلقين مشاعة بينه وبين آرائه ؛ ففى دورها تمثل الخيالات على الشاشة ، والوقائع العملية فى فسحاتها وبين جدرانها ؛ وفى الروايات السينمائية مخاز وفضائح ، خصوصاً فى دورها الكبيرة التى يرتادها جمهرة الشعب ، ويغشاها سواد العامة الوسط ؛ فلا تخلو رواية تمثل فيها من عشق وغرام ، وتحايل وتفنن فى أساليب الوصال والدلال ، واللعب بعقول البسطاء والسذج ؛ وقد كنا بالأمس نهزأ بسامعى قصص عنترة ، وأبى زيد الهلالى ، والزناتى خليفة ، ويعلم الله أنها — مع خرافيتها — كانت تبعث فى نفوس السامعين روح الشجاعة والتحمس ، فيميل بعضهم إلى الانتصار لهؤلاء الفوارس ، ويطرب لذكرهم ؛ وكانت تسلية بريئة من النقائص والرذائل ، وكانت اجتماعات لا تهرق فيها دماء الفضيلة ، ولا يستثار الشر من كل جنباتها ونواحيها ، فهذا الاجتماعات التى كنا نهزأ بها ونسخر منها ؛ أما دور الملاهى الآن — وهى مهبط شياطين الإنس ، ومأوى قادة الشر المستهترين ، وموطن الفجرة العابثين — فقد أصبحت مفخرة المتمدين ، وعنوان الحضارة ؛ وليس ثمة شىء من أمل أو رجاء فى تقويم معوجها وإصلاح فاسدها ؛ فإنه بينما تعرض أمامك — على الشاشة البيضاء (السينما) أو على المسرح — تمثيل عاقبة المضللين وآخرة المغرورين ، تجد من بين أفراد النظارة من يغتنم الفرصة ، ويعمل ما يؤدى إلى الحسرة والغصة ، وإنك لتجد فى هذه الدور — التى يظن أهلها

أنهم قادرون على خدمة الفضيلة ، وإذا بها أسباب تهيأ لنتائج الرذيلة ، وإدماء القلب ، وجرح النفس — أن قوام كل ذلك هي الطبقة المتعلمة ؛ أما أمسنا القريب ، وملاهينا الساذجة فكانت مدعاة للتفكير والتأمل ، فإني أذكر مسارحنا وملاهيها ، ومقدار ما كان يبالغ أصحابها فيه من الحيطة والحذر من تلك المخازي ، بل أذكر — فوق ذلك — أننا كنا مفكرين ، ينقصنا التنقيح والتحسين ؛ فإن (سينما) بلادنا كان «خيال الظل» تنقصه الكهرباء ، فلو تحركنا قليلا ، وفكرنا قليلا ، لأمكننا التقدم واستخدامه في الصالح ، ولكن هو شقاء الشرق العامر بالذكاء والفطنة ، أهله كسالى لا يتخطون موقفهم ، فيأتي الغربي فيأخذ عنهم ، وينكر فضلهم ، ثم تنبثق أمامه أنوار البحث ، فيكتسب المجد والفخر ، وينسب إليه الفضل ؛ وقد دفع هذا النجاح أبناءه ، فساروا ووقفنا ، وتقدموا وتأخرنا ، وعملوا وتكاسلنا ، ونجحوا وفشلنا ؛ وأصبحوا هم رجال العمل ونحن رجال القول ، سنة الله في خلقه ، من جد وجد ، ومن سار على الدرب وصل ! رحماك ربي ما العمل ؟

نعود إلى المدرسة ؛ دخلت يوماً أحد الفصول ، وكان ذلك في الفراغ الذي يتخلل حصص الدروس ، فسمعت طالباً يقرأ القرآن ، وإخوانه الطلبة حوله يستمعون إلى حسن تلاوته ، وإجادة قراءته ، ورخامة صوته ، وبعد ختامه قاموا جميعاً إلى مسجد المدرسة واستعدوا للصلاة ، فانتشروا للوضوء ، ثم أذّن ذلك الطالب بصوته الجذاب ، فأقبل آخرون ، وصلى هؤلاء الأبرار الأطهار ، وحافظوا على وقت درسهم ؛ فقفلوا راجعين إلى فصولهم ، ومن محاسن الصدف أن كانت حصة اللغة العربية ، فبدأ الأستاذ يشرح الدرس ، وكان يطبق كل نظرياته على آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وحكم مأثورة ؛ وكان الدرس روضة فيحاء ، وحديقة غناء من آيات العلم والأدب ، تقتطف فيها أزاهير الفضيلة والأمانة والاستقامة ، وينتشر في أرجائها نور الإيمان والتقوى واليقين ؛ كان هم الأستاذ — وقد جعلنا أبناءه — أن ينبتنا نبتاً صالحاً في الأمة ، ولا أخفي أن بعضاً من المستهترين أحرج موقفه وأدرك عاقبته ، فجاري بقية إخوانه ، وكانت هذه المجاراة داعية إلى الصدق في العزيمة ، والإخلاص في النية ، حتى حسنت حاله ، وعمل مع إخوانه ؛ وكانت برامج التعليم — وقتذاك — في منأى عن هوى السياسة ، وكانت ذخيرة صالحة نافعة للأمة ، ولكن تغير ما كان ، فضل السعي ، وخاب المسعى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

أما الدين فكانت له الأهمية الأولى في التعليم ، لأنه نبراس وضاء يهدي إلى الحق ، فكانت الحياة العامة الهادئة أول ما يشجع الفرد على القيام بتكاليفه ، وكانت الجرائم قليلة ، وكان المجرم غير خفي عن الناس ؛ والدين لله كله ، لهذا جفاه الناس ، وخبت أنوار مصابيحه الوهاجة بين جدران

دور التعليم ، فأصبحنا فى ديجور الجهالة ، وحلكة الضلال ، وظلام الفساد ، وتساوى المتعلمون وغير المتعلمين ، وتضاعفت الأوزار ، وتغلب الفجار : فانقلبت الحال إلى أسوأ الأحوال. كنا فى المدرسة ـ وفيها المسلم وغير المسلم ـ ولا يستطيع واحد أن يتظاهر بالفسوق أو الفجور ؛ وكان لى صديق حميم حفظ القرآن ـ وإن لم يكن من أبنائه ـ وقد أجاد الحفظ ، وأصبح من الفصحاء البلغاء ، ولولا ما وجد عليه أهله وآباؤه لفتح لنفسه فى حياته طريقاً حسناً ، ومع هذا فهو عنوان الاستقامة والفضيلة .

كانت المدرسة الخديوية تجمع أبناء السراة وأولاد الفقراء وفيها أبناء الوسط بين الاثنين ، فما كنت تشعر بفوارق بينهم ، لأنهم كانوا يحترمون أنفسهم ، ويوقرون بعضهم بعضاً ، وليس بغيضاً بينهم إلا من شمخ بأنفه فى ازورار ، أو مسه طيف الغرور ، فكنت تراهم ... عا هجره ، متفقين على نبذه نبذ النواة ؛ وكان التفاخر بينهم بالتقدم فى الدروس ، والتفوق فى ... يسمو الفقير بتقدمه وحسن نتائجه ؛ وكانت المدارس للعلم والأدب فقط ، وللعلم والفضيلة فقط ، ولا أستطيع أن أقول : ماذا هى الآن ؟ اللهم هيىء لنا من أمرنا رشداً ! وكان المدرسون مع الطلبة بمثابة الآباء الرحماء مع الأبناء الأتقياء ، وجهود المدرس لتعليم وتربية الطالب . وهمّ الطالب : التحصيل والحفظ والأدب ، كلاهما يشعر بواجب عليه يؤديه ، فإذا اشتد المعلم وقسا كان لصالح الطالب ، وإذا أهمل الطالب وتكاسل وجد عناية واهتماماً بإصلاحه وتحسينه . أما الآن . . . ؟ ! ! !

جاوزت السنة الأولى من المدرسة وفزت بنجاحى ، وما حلت السنة الثانية إلا وقد رمدت شهرين متتابعين حرمت فيهما الدرس والمدرسة ، وانتهى الأمر بما لا يرضاه الشفيق من ضعف البصر ؛ فكانت حقبة من الزمن لها أثرها عندى ، وحفظته ذا كرتى ، لأنه مؤلم شديد ، إذ لولا عناية الله الساهرة على اليتيم ، لضاع بصرى بين كفتى القدر .

رمدت عيناى ؛ فأكرهت على المكث فى البيت ، وفيه عدد كبير من أهلى ، ولهم طبيب يعودهم ، ولكنى محروم الاهتمام من أحدهم ، إذ كل مشغول بأولاده ، وانقطعت عن المدرسة ولا من يحس منهم ما أنا فيه ، حتى أرسلت المدرسة كتاباً تستعلم فيه عن خبرى ممن كان مراسلا لى ، فبدت مسألتى فى الظهور ، وإذا بى فى غرفتى أتوجع من باصرتى ؛ وجاء الرسول يبحث عنى ، وأرسل نظره إلى ، فرق قلبه لى ، ورجع مع الطبيب فعادنى ؛ ولولا فضل الله بهذه المنة لفقدت بصرى ، وتوى الألم ببصيرتى ، حيث كنت أسمع أن مرضعاً توعكت قليلا ، فجىء لها بالطبيب حرصاً على صحة رضيعها ، وبلغ الاهتمام بها مبلغاً جعلنى أدرك أن ذلك المخلوق الصغير الذى ترضعه موضع عناية أبويه ، وقبلة رجائهما ، وأنا من يهتم بأمرى ، وقد فقدت الرجاء فى الأبوين ؟ ؟

أسعد لطفى حسن